بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

تمهيد

توالت على العالم الأيام ، ومرت به السنون والأعوام ، حتى صار فى وضعه الحالى ونظامه الاقتصادى القائم . ولن تقف به عجلة التقدم ، ولن تستقر كثيراً ولن تلبث طويلا ، حتى تخطو خطوة أو خطوات : سنة التطور والارتقاء .

وما كان النظام الاقتصادى الحالى إلا صفحة من صفحات تاريخ العالم الاقتصادى وطوراً من أطواره ، تلك الأطوار التى مر العالم بها متعاقبة متداخلة بعضها فى بعض .

وصحب تلك الأدوار فى ظهورها الكثير من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى زادت خطورتها كلما زادت الحياة الاقتصادية تعقيداً . وتعددت عمليات الإنتاج وتباعدت مراحله . ولعل أهم تلك المشكلات وأكثرها ظهوراً وأبعدها أثراً وأعظمها خطراً على الكيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والدولى مشكلة البطالة .

وإن لمحة خاطفة إلى الأدوار التى مر بها الإنتاج لتريتا أن الإنسان بدأ يستهلك ما ينتج ، ويعتمد فى سد حاجاته الضرورية وإشباع رغباته الأولية على ما كانت تجود به الطبيعة عليه من خيرات دون تعديل منه أو تهذيب اللهم إلا القليل اليسير ؛ وما كان ذلك ليتطلب منه جهداً أو مشقة عظيمة ، إذ لم تكن حاجاته متعددة ، ولم تكن رغباته متزايدة ، ولم يكن هنالك ذلك التزاحم البشرى العجيب . ولكن الإنسان مدنى بطبعه ، اجتماعى بغريزته ؛ فسرعان ما انضم

إلى غيره وأصبح عضواً عاملا فى جماعة تكفى نفسها بنفسها، ويتعاون فى الإنتاج أفرادها ، ويشترك فى الاستهلاك أعضاؤها . كان لكل عمله الذى يؤديه ، وكان له من إنتاج الجماعة ما يكفيه . وما لبثت تلك الجماعات التى يجمعها صعيد واحد ، وتربطها روابط الدين والعرف والعادات ، أن تمثلت فى ذلك الشكل الأعلى للجماعات البشرية : ألا وهو الدولة .

كانت الصناعة الرئيسية حينئذ هى الزراعة ، وظهرت المدنيات فى تلك الأمصار الزراعية التى جادت عليها الطبيعة بالخصب والنماء ؛ لكن الذين استأثروا بخيرات الأرض قلة : هم من الملاك الذين كانوا يملكون الأرض ومن عليها وما عليها ، وعلى العامل أن يؤدى ما يعرض عليه المالك من عمل ، وليس له من حقوق على المالك إلا الضرورى من المأوى والغذاء والكساء . كان طبيعياً ألا يدوم هذا الدور الذى كان طابعه الظلم ، وسرعان ما أعلن العالم حربه الشعواء على نظام العبودية والاسترقاق ، وحتى تمتع العامل بحريته الشخصية وأصبح حراً فى اختيار العمل الذى يناسبه ويرضيه ، إلا أنها كانت حرية الرجل الضعيف الذى لا حول له ولا قوة ، لأنه لم يستطع أن يتخلص نهائياً من حكم مستعبديه من قبل وهم الملاك ، وواجهته مشكلة طوحت بسعادته ، إذ زاد عدد العمال زيادة أربت على حاجة الزراعة ، ولم تتسع الصناعات الضيقة النطاق وقتئذ لذلك العدد المتزايد ، ولم تتمكن من استيعابه ، فانخفضت أجورهم وساءت أحوالهم ، وتعطل فريق منهم . إلا أن المصانع اليدوية التى ظهرت بعدئذ أقبل أربابها على استخدام عدد كبير من أولئك الذين ضاقت بهم الزراعة ذرعا ، ومن ثم لم يكن للبطالة حدتها ، ولم يكن لتلك المشكلة خطورتها . وانتصف القرن الثامن عشر ، وظهرت المصانع الآلية ، وتتابع ظهور المخترعات واستخدام البخار والكهرباء ، فأحدث ذلك انقلاباً كبيراً فى الحياة الاقتصادية ، وسبب إقبال أصحاب المصانع على

استخدام العمال ارتفاع أجورهم ، فأغراهم ذلك الارتفاع بهجر الزراعة ، ووجدوا الفرصة سانحة للتخلص من الملاك الذين طالما ساموهم الخسف ، وجرعوهم كؤوس الهوان ؛ فهرعوا إلى المدن الصناعية تجتذبهم أجورها العالية ، ونزحوا إليها من كل حدب . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن أقفر الريف من العمال وزخرت بهم المدن فاستهدفوا للكثير من المساوئ الخلقية ، والاجتماعية ، وظل الريف على حاله يغذى تلك المدن بخيرة بنيه حتى فقد بهجته ونشاطه وساءت حال الزراعة فيه .

دارت الأيام دورتها ، وأعاد التاريخ نفسه فى الصناعة ، فازداد عدد المشتغلين بها والراغبين فيها ؛ فانخفضت أجورهم ولم تراع ظروف استخدامهم وحلت الآلات محل العمال فى كثير من الصناعات ، وازداد حال العمال سوءاً وتعطل منهم فريق كبير ، وقابل العمال إحلال الآلات محلهم بمقاومة عنيفة واستياء شديد فى أول الأمر ، إذ حسبوها القاضية على أرزاقهم وسبل عيشتهم ، ونال مخترعوها من أذاهم الشيء الكثير ، وتعددت حوادث الإضراب من جانب العمال علهم يرغمون أرباب الأعمال على تحسين أحوالهم ورفع أجورهم . ولم يجد ذلك نفعاً فلم تكن لديهم فضلة من المال تعينهم فى ذلك النضال ؛ هذا إلى أنهم كانوا يمثلون البؤس وسوء الحال ، وكانت مساكنهم غير صحية تكتظ غرفها بعشرات الأفراد الذين يتناوبون فترات النوم والراحة ، وكانت الأغلبية العظمى لا تجد غطاء يقيها قارس البرد وزمهرير الشتاء . على أنه كانت هنالك جماعة من العمال المتعطلين على استعداد دائم لأن يشتغلوا مكان المضربين ويحلوا محلهم بأى أجر يعرض عليهم يمسكون به رمقهم ويقضون به الضرورى من حاجاتهم . وكم صور الكتاب والقصصيون بؤس العمال وشقاءهم فى تلك الفترة من الزمان وما غالوا فى ذلك وما تجنوا على الحقيقة وإنما كانوا يصفون واقع الحال .

وقد صور القصصى الانجليزى «جالزورثى Galsworthy» فى روايته «Strife»

بؤس العمال وشقاءهم وتعسف أرباب الأعمال وجبروتهم وذلك النضال الذى اتخذ أروع صوره، أجمل تصوير وأبدعه. وصور الشاعر «جولد سمث Goldsmith»، فى قصيدته عن القرية المهجورة، حال الريف وقتئذ: فقد خلت القرى الهادئة من جمهرة سكانها الذين نزحوا جماعات إلى المدن. وقد حاول العمال جاهدين أن يستميلوا عطف الحكومة كى تتدخل لحمايتهم من أرباب الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال وأن تنقذهم مما هم فيه، ولكن صيحاتهم كانت تذهب أدراج الرياح ولم تكن الحكومة لتعيرها أذناً مصغية؛ والمذهب الحر فى أوجه، ونظريات «آدم سمث» والاقتصاديين الأحرار مازالت تشغل الأذهان وتملك على الحكام تفكيرهم وتسيطر عليهم فى سياستهم الاقتصادية والاجتماعية على السواء. وكان كل تدخل من جانبها على حد الفكر السائد يتعارض والصالح العام، بل يزيد الحال سوءاً على سوء. إلا أن العمال وأرباب الأعمال مسوقون — وهم فى سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية — إلى تحقيق الصالح العام وتحسين أحوالهم ورفع أجورهم، تدفعهم إلى ذلك دفعاً يد شيخ الاقتصاديين الخفية. ولم يكن إضراب العمال مستساغاً أو مقبولا فى ذلك الحين، بل إنه باء بسخط شديد؛ وتوالت نظريات الاقتصاديين ذات الطابع المتشائم: فنظرية السكان «لمالتس»، وقانون الأجر الحديدى «للاسال» ونظرية مخصص الأجور «لجون ستيوارت ميل» ما كانت لتوحى جميعها بأمل للعمال جديد فى تحسين أحوالهم ورفع أجورهم.

إلا أن العمال ما وهنوا، وما لانوا، وما استكانوا، وإن لاقوا فى ذلك عناء شديداً وضرراً عظيما. فقد عملوا على تنظيم صفوفهم وتوحيد جهودهم وجمع كلمتهم بتكوين النقابات تجمع عصبتهم، والتى تلم شملهم، وتصون حقوقهم، وتدافع عن كيانهم؛ وقد استهدفت اتحادات العمال فى بداية أمرها لعنت الحكام وتعسفهم ومحاربتهم، وكثيراً ما تأخر اعتراف الحكومات بها، وسنت القوانين لتحول

دون قيامها ، وحرم على العمال الانخراط فى سلكها باعتبارها جماعات تآمر يخشى منها على النظام العام . ولكن العمال جاهدوا فى سبيل الاعتراف بها أيما جهاد ، حتى تم لهم بعدئذ ما أرادوا بفضل جماعة من المصلحين الاجتماعيين أمثال « فرنسيس بلاس » و « يوسف هيوم ». ونظمت اتحادات العمال هذه ، حركات الإضراب التى أصبحت فى هذه المرة لها خطرها ولها أثرها ، وكانت تمد المضربين بالمال فكانوا فى نضالهم هذه المرة أشد قوة وأكثر احتمالا وأطول مدى ، واتخذ النضال بين العمال وأرباب الأعمال أعنف صورة فى ذاك الوقت ، ووجد العمال فى تلك الاتحادات التى زاد عددها وعظم شأنها خير قاض على مساوئ النظام الرأسمالى . وتمكنت تلك الاتحادات عن طريق مساومتها الإجماعية من إيجاد حد أدنى للأجور ، وتحديد ساعات العمل وتحسين ظروفه ؛ وعملت على إدخال « ظم التأمين » المختلفة فأسهمت بنصيب كبير فى رفع مستوى الحياة الاجتماعية لأفرادها ، وتعليم أبنائها ، والسهر على مصالح أعضائها ، وأصبح لها شأن كبير فى توجيه الحياة السياسية فى الكثير من البلدان و إدارة دفة الحكم فيها. وقد نجحت تلك الاتحادات إلى حد كبير فى تحقيق أغراضها ، إلا أنها لم تنجح فى حق تقرير العمل لكل فرد فى الكثيرمن البلدان والقضاء على ظاهرة البطالة التى تردى عدد كثير من العمال فى شرورها ومهاويها مع أنها الشبح المخيف الذى يزعزع الرأسمالية ، و يقضى عليها . ولعل المستقبل القريب كفيل بتحقيق آمال العمال فى القضاء على هذا الداء الوبيل .

وفى الوقت الذى نمت فيه اتحادات العمال وعظم شأنها كانت تتجاذب الحياة الاقتصادية مؤثرات شديدة ، تناولت نظم الإنتاج بالتغيير والتبديل وزادت الهوة بين المنتج والمستهلك اتساعاً ، وأصبحت عمليات الإنتاج أكثر طولا وتعقيداً ، واستخدمت المستحدثات الآلية على نطاق واسع ، و بشكل كبير ، وأقبل المنتجون

على سد حاجات ذلك العدد الكبير من سكان العالم المطرد الزيادة ، وعملوا على إشباع رغباته التي تنوعت وتعددت بإنتاج الكثير من السلع والخدمات ، وازدادت نسبة رأس المال الثابت زيادة كبيرة ، ولاقى المنتجون صعوبات كبيرة فى سبيل تحقيق التوازن ما بين المعروض من السلع والمطلوب منها ، بل لم يكن فى وسع هؤلاء المنتجين فى الكثير من البلدان أن يحدوا من كمية إنتاجهم إبان الكساد العالمى الكبير الذى حل بالعالم منذ سنة ١٩٢٩ مخافة تعرضهم للكثير من الخسائر نتيجة التزايد الكبير للنفقات الثابتة فى الصناعة ؛ وبذلك أضحت الأزمات الاقتصادية أكثر خطورة وعنفاً مما كانت عليه من قبل ، وصارت أشد قسوة فى تشريدها لعدد كبير من العمال .

وهكذا فى الوقت الذى نعمت فيه المجتمعات بآثار التقدم الصناعى وخيراته ، وبتلك الوفرة فى السلع والخدمات ، عانت ماعانته من تزايد عدد المتعطلين وانهيار مستوى معيشتهم ، وأصبح هؤلاء المتعطلون شبحاً مخيفاً يهدد الدول بالانقلاب الاجتماعى والثورة على النظم السياسية القائمة ، ومن ثم تعمل الحكومات جاهدة للقضاء على مشكلة المتعطلين متعاونة فى بحث هذا الداء الوبيل وهو البطالة كى لا تعصف أعاصيرها الهوجاء بنظمهم وتودى بمدنياتهم .

والاقتصاديون عليهم — وعليهم وحدهم — القيام بذلك العبء من البحث والدرس كى يتمكنوا من تشخيص الداء فيصلوا إلى ناجع الدواء . وهذا ما عنيناه من بحثنا الذى قدمنا له بهذه اللمحة الخاطفة عن الحياة الاقتصادية والذى نسأل الله فيه التوفيق والسداد لما فيه الخير للجميع .